الفصل السادس والعشرون

العرب فى أسبانيا — دولة بنى أمية

١٣٨ — ٣٠٠ هـ ، ٧٥٦ — ٩١٢ م

عبد الرحمن الأول (الداخل) — هشام — الحكم — عبد الرحمن الثانى (الأوسط) — محمد — المنذر — عبد الله

عبد الرحمن وعبوره إلى الأندلس — موقعة المصعرة — ثورة الأشراف — دسائس الفرنج — غزوة شرلمان — موقعة رونج فال — أخلاق عبد الرحمن ووفاته — هشام الأول — أخلاقه — قتال عبد الرحمن للفرنج — المذهب المالكى — وفاة هشام — الحكم الاول — أخلاقه — سخط الفقهاء عليه — الثورة فى قرطبة — قمع الثورة — نفى الثوار — طليطلة — وفاة الحكم — عبد الرحمن الثانى — غارات قبائل النصارى — قمع الثورة — ظهور النورمان — تعصب النصارى فى قرطبة — وفاة عبد الرحمن — ولاية محمد — أخلاقه — قمع ثورة النصارى — ثورة النورمان — انهزام الثوار وفاة محمد — ولاية المنذر — وفاته — ولاية عبد الله — انتشار الثورة وفاة عبد الله — العرب فى بيومون وسافوا وسويسره

عبد الرحمن الأول الملقب (بالداخل)

وما كادت تنقضى ست سنوات على موقعة الزاب حتى قامت دولة أموية جديدة فى الغرب ، وكان ممن نجا من فتك السفاح ، وشدة بطشه حفيد هشام المدعو عبد الرحمن الذى يعد فراره من الشام ونزوله فى المغرب الأقصى ، ثم فراره منها ونزوله على نفر من البرابرة حادثة روائية مليئة بالمفاجآت التى تحرك العواطف وتثير الإعجاب ، فبينما كان مختفيا عند البربر لم يكن ليستطيع مقاومة ذلك الطموح الذى ملك عليه حسه فى الاستيلاء على تلك المملكة الجميلة التى كانت ذات يوم ملكا لأسلافه ، فلما وطد العزم نهائياً على ابتلاعها أرسل أحد مواليه ليجمع كلمة أنصار بنى أمية فيها ، فقوبلت دعوته بحماس شديد ،

وطلبوا إليه أن يحضر بنفسه . وفى أيلول سنة ٧٥٥ م عبر هذا الأمير الفتى من أمراء الأسرة الأموية المنكودة إلى شواطئ أسبانيا ، ونزل ببقعة تعرف « بالمنكب » ، وقد كان اليمانيون وقتئذ يئنون من تعسف منافسيهم المضريين ، فانحازوا إليه فى الحال وانضووا تحت لوائه ، واستطاع بذلك أن يواجه حاكم الجزيرة « يوسف » الذى كان يحكم تلك البلاد كملك مستقل ، وإن كان تابعا اسميا للخليفة العباسى ، ودارت المعركة التى أعطت لعبد الرحمن العرش ببقعة تعرف « بالمصرة » ، وكانت لا تقل شأنا عن موقعة مرج راهط ، فهزم يوسف شر هزيمة ، واضطر إلى التسليم ، ولكنه فى سنة ١٤١ هـ نكث العهد وثار على عبد الرحمن ، فدارت بينهما معركة هزم فيها يوسف وركن إلى الفرار ؛ واغتاله بعض أصحابه .

وقد حقق الآن الأمير الطريد البائس أمنيته ، وأصبح أمير مملكة قوية ، ولكنه لم يتمتع بنتيجة فوزه وانتصاراته بسلام ، إذ أن رؤساء القبائل لم يرقهم — كعادتهم دائما — الخضوع للسلطة والإذعان لأمير مطلق ، وشاطرهم البربر ذلك الشعور ، وكان كلاهما نظراً لميله الجمهورى يرمى إلى تقسيم إسبانيا العربية إلى إمارات صغيرة تكون حرة فى محاربة بعضها البعض ، على أن تتحد وقت الخطر لرد غارات المسيحيين فى الشمال ؛ ونظرا لهذا الشعور ذهبت مساعى عبد الرحمن فى إعادة النظام والأمن سدى ، وتصدى له البربر ورؤساء القبائل ، ونال ثوار العرب كما نال الثوار المسيحيون فى ليون وكتالونيا ونافارا مساعدة وتعضيد ببين القصير وولده شرلمان ، وكانت سياسة هذين الأميرين ترمى إلى تأييد كل ثورة ترمى إلى الاستقلال عن ملك قرطبة ، ولطالما حرض ملوك الفرنجة على إثارة تلك الفتن ، ولكن عبد الرحمن تهيأ لإخماد هذه الثورات بنشاط لا مثيل له ، واتخذ الدهاء رائده فى المحافظة على السلام والأمن ، واتبع سياسة قد لا نحبذها لبعدها عن المروءة والاستقامة ، ولكنها كانت على كل حال ملائمة كل الملاءمة

لتلك الظروف ، إذ كانت المعركة معركة الإمارات والملكة . ولحسن طالع عبد الرحمن لم يكن ثمة اتحاد بين رؤساء القبائل العربية ولا من يجمع كلمتهم ، ولم تمض سنوات قلائل حتى مزق الأمير الأموى شمل أعدائه وثبت قدمه فى البلاد ، غير أنه أصبح الآن يعتمد فى سلطانه على الجنود المرتزقة ، فلم يصبح ذلك الملك المحبوب ، ولا البطل الشاب الذى استقبل استقبالا حماسياً عند وصوله ، ولم يعد يستطيع أن يتجول فى شوارع قرطبة دون أن يحيط به رهط من الحرس فاضطر إلى استخدام عدد كبير منهم ، وإلى اصطناع القبائل ليحموه من انتقام منافسيه الذين لقوا على يديه أهول الخطوب .

وبينما كان عبد الرحمن مشتغلا بهزيمة أعدائه أغار المسيحيون على البلاد الإسلامية الشمالية وأحرقوا مدنها ، وخربوا معاهدها وضياعها ، وقتلوا وأسروا كثيراً من سكانها ، فعم بهم البلاء والفوضى فأضاع المسلمون قسما كبيراً من ممتلكاتهم الشمالية ؛ فانتهز (فرويلة[1]) ابن الفونسو (الأدفنوش) فأغار على لوكو (لك) ، وأوبورتو ، وشلمنقة ، وقسطيلة[2] ، وزامورا (سمورة) ، وسيكوفيا

---

(١) ويسميه ابن الأثير تدفيليا .

(٢) يسمى مؤرخو العرب ولايتى قسطيلة وآلفا (ألبا والقلاع) محرفة عن اللاتينية القديمة Alva ét castella Vetula أما ناڤارا فيسمونها بلاد البشكنس Bascons ، وأحيانا يطلقون ذلك الاسم على بلاد غسقونية Gascogne المجاورة لجبال البرنيه التى يسمونها جبل البرت أو الممرات وكان بها خمس ممرات توصل من أسبانيا إلى فرنسا كان العرب يستعملونها فى عبور الجبال حين الغزو وهى :

١ — ممر بربنيان الموصل من برشلونه إلى أربونة .

٢ — بايكارديا الموصل إلى سردانيه .

٣ — الممر الموصل من بنبلونة إلى سان جان دى بيدبور من مفاوز رونشفال ، ويسميه الأدريسى باب الشرزى .

٤ — الطريق إلى تولوز من بايونة .

٥ — الطريق الموصل إلى جاكا عن طريق بيارن . ويسمى مؤرخو العرب كذلك طليطلة وأعمالها فى دولة بنى أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سرقسطه وجهاتها بالثغر الأعلى (ولاية أراغون الحديثة) .

(سيقوبيا) . وفى سنة ٧٧٧ م عبر أحد الخارجين[١] على عبد الرحمن جبال البرنيه ، واستنصر بشارلمان[٢] ، فوجد إمبراطور الفرنجة الفرصة سانحة لمد سلطانه على الجزيرة بتفريق كلمتها وتغليب أمير على آخر ، فحشد جيشاً ضخما عبر به الجبال مكتسحاً أمامه كل مقاومة حتى وصل أسوار سرقسطة ، فدافع عنها حسين بن يحيى الأنصارى[٣] الذى أنزل بشرلمان خسارة فادحة ، وعندئذ عاد بفلوله ، ولكنه حين اخترق البرنيه هاجم مؤخرة جيشه مطروح وعيشون ابنا سليمان ، فمزقا مؤخرة الفرنج كل ممزق ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الجيش الفرنجى[٤] . ثم عقدت معاهدة سلم[٥] بين شرلمان وعبد الرحمن ، وهكذا شيدت دعائم ملك بنى أمية فى وطنه الجديد ، ومع أن حكمه تخللته الفتن والمؤامرات حتى من أفراد أسرته إلا أنه تغلب على جميع أعدائه ، وأسس سلطته على دعائم قوية ، وقد توفى فى سنة ١٧٣ هجرية[٦] ، وكانت مدة حكمه ثلاثة وثلاثين سنة ؛ ومع أنه كان يلجأ فى قمع الثورات إلى القسوة والشدة فإنه كان بطبيعته لين العريكة رقيق الحاشية[٧] محباً للعلوم والفنون . ويصفه ابن الأثير : « بأنه طويل القامة ، نحيف القوام ، حاد الخلقة ، عالى الهمة ، ذكى الفهم ، وافر النشاط والكرم وبعد النظر ، آية فى الصراحة وحرية القول ، وكان يقاس بالمنصور فى حزمه وضبط المملكة[٨] ، فجمل قرطبة بالمبانى الفخمة

---

(١) سليمان بن يقضان الكلبي .

(٢) ويسميه ابن الأثير فارلة .

(٣) من أحفاد سعد بن عبيدة .

(٤) ابن الأثير المجلد السادس .

(٥) يقول ابن حيان فى الجزء الأول ص ١٥٥ إن عبد الرحمن لجأ إلى مداراة شرلمان ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه إلى السلم ولم تتم المصاهرة . (المعرب)

(٦) يقول ابن الأثير إنه توفى سنة ١٧١ هـ .

(٧) رينود ص ٩٨ .

(٨) نذكر فيما يلى ألفاظ ابن الأثير حرفياً « كان فصيحا لسناً ، شاعراً ، عالما ، حليما ، حازما ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه . لايخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ، =

والحدائق الغناء ، وشرع فى إنشاء مسجدها الجامع ، غير أنه توفى قبل إتمامه ، وكان قد أمر بعدم الدعاء فى الخطبة للخليفة المنصور العباسى ، ولكنه لم يتخذ لقب أمير المؤمنين احتراما منه لكرسى الخلافة الذى كان لا يزال مهد الإسلام ومجتمع القبائل[١] العربية ، واكتفى بلقب الأمير[٢] .

استخلاف هشام

وخلف عبد الرحمن ابنه هشام ، « وكان حازما ، ذا رأى وشجاعة وعدل وخير ، محباً لأهل الخير والصلاح ، شديداً على الأعداء راغباً فى الجهاد[٣] » ، وفى الواقع كان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز[٤] ، وكان يلبس الملابس العادية ويطوف شوارع قرطبة مختلطا بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الباردة لإغاثة البائس والملهوف ، وتعزية المصاب والمنكوب ؛ وكان فوق ذلك حكيما حازما ، فقمع الفتن بيد من حديد ، وأدب الأشقياء ، وساد الأمن فى عصره ، وجدد الجسر الذى كان السمح بن مالك قد شيده ، وأتم بناء المسجد الجامع الذى أسسه أبوه وزين مدن مملكته بالمبانى الجميلة الفخمة .

غير أن شدة شكيمته ورقة حاشيته لم تحولا دون خروج الأمراء عليه ، إذ حقد عليه إخوانه ، وبعد أن قمع ثورتهم زحف على ضفاف الأبرو لقمع فتنة مطروح بن سليمان بن يقضان الذى استنصر بشرلمان ، فقتل الثائر واستعاد سرقسطه وبرشلونة ، وبعد أن استتب له الأمر فى الولايات الداخلية حول جهوده

= لا يكل الأمور إلى غيره ، ولا ينظر فى الأمور برأيه ، شجاعا مقداما ، بعيد الغور ، شديد الحذر سخيا جواداً — وكان يقاس بالمنصور فى حزمه وشدته وضبط المملكة » (ابن الأثير ج ٦ ص ٣٨) . (المعرب)

(١) هذا قول المقرى . أما المسعودى فيذكر أن بنى أمية بالأندلس ، لم يتخذوا ذلك اللقب طالما كانت المدن المقدسة فى حوزة العباسيين .

(٢) يسميه ابن الاثير دائماً بصاحب الاندلس .

(٣) دوزى .

(٤) ابن الأثير ج٦ ص١٠٢ .

صوب المقاطعات الشمالية التى كان أهلها يكثرون من الغارة على البلاد الإسلامية ويفتكون بأهلها ، وطالما شجعهم الفرنج على إضرام نار الفتن وحرق المدن ، والتنكيل بالمسلمين ؛ فأصبح الآن ذلك النزاع نزاعا بين المدنية والبربرية ، واسوء الطالع كان حملة مشعل المدنية يلاقون عنتاً من الثوار والخارجين ، بينما كان الآخرون ينالون المساعدات الخارجية باستمرار . فرأى هشام من الضرورى أن يلقى درساً على الفرنج الذين اتخذ أمراؤهم إلى ذلك الحين خطة عدائية نحو أسبانيا العربية ، وشجعوا أهلها على إثارة الفتن ؛ فجهز لأجل هذه الغاية جيشين سار أحدهما إلى فرنسا مخترقا كتالونيا ، فعبر سردانية واستولى على أربونة وعدة حصون أخرى ، وأوقع بجيوش الكونت طولوز الذى بعث به شرلمان لحماية سبتمانية هزيمة منكرة على ضفاف الأور بينا بموقع يعرف بفيلدين ، ونال الجيش الثانى نجاحا عظيما ، إذ سار إلى جليقية لمحاربة ثوارها الذين انضووا تحت لواء زعيمهم برمودة فهزمهم واضطرهم إلى طلب الصلح .

المذهب المالكى وانتشاره فى أسبانيا

كان هشام يحترم مذهب الإمام مالك[1] مؤسس أحد مذاهب السنة الأربعة ، وقد بذل الملك الجديد جهده فى حمل الناس على اعتناق ذلك المذهب وأصبح منذ ذلك الحين المذهب الرسمى للأندلس ، وقوى نفوذ الفقهاء الذين كانوا يجمعون إلى وظائف الفقه مناصب حكام الشرع ، وكان هشام يبدى لهم احتراما عظيما فكثر تدخلهم فى مصالح الناس .

وفاة هشام وتولية الحكم الملقب بالمنتصر

وفى سنة ١٨٨ هـ توفى هشام ، فخلفه ابنه الحكم الملقب بالمنتصر ، ويصفه ابن الأثير : « بأنه كان صارما حازما ، وهو أول من أظهر فخامة الملك وأسرف فى تأييد هيبته » ، ومع ذلك لم يخل حكمه من الاضطرابات الداخلية ، فلم تتفق ميوله الدنيوية مع حياة التنسك التى كان يريدها له الفقهاء والعلماء ، وكان ميالا إلى اللهو مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الشعراء والمغنيين والفلاسفة على مجالس

(١) كانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الأوزاعى . (المعرب)

الفقهاء والعلماء ، ولكن كانت ثمة أسباب أخرى تحملهم على عدم الرضا ، إذ كان نفوذهم قد اشتد فى عهد هشام ، أما سياسة « الحكم » فكانت ترمى إلى إقصائهم عن التدخل فى مصالح الدولة بالرغم مما كان يبديه دائما نحوهم من ضروب الاحترام وتنفيذ الأحكام التى كانوا يصدرونها ؛ فأبى كبرياؤهم الدينى احتمال ذلك ، وأخذوا ينددون بالأمير من على المنابر ، ويتهمونه بالكفر والزيغ ، ويبتهلون إلى الله أن يهديه سواء السبيل ، وحاولوا بهذه الطريقة تحريض مسلمى الأسبان الذين كان لهم عليهم نفوذ لا حد له ، وكان الأسبانيون المعتنقو الإسلام حديثاً يؤلفون القسم الأعظم من السكان ، وكان هؤلاء المسلمون فى قرطبة وأشبيلية وطليطلة ومدريد ينتسبون إلى كبار الأسر ، وكانت المصاهرة شائعة فى ذلك الحين بين العرب والبربر من جهة ، والأسبان المسلمين منهم والمسيحيين وبالأخص فى الولايات الشمالية ، وسمى نسل هذا التزاوج بالمولدين أو البلداويين وكان العرب الأصليون يقابلون هؤلاء المولدين بالكبرياء والأنفة ، وحاولوا كما كان شأنهم فى فارس فى العهد الأموى أن يقصوهم عن الوظائف الكبرى ولهذا نشأوا على بغض العرب والبربر معاً ، ولطالما ثار الأسبان المسلمون بين الفينة والفينة ضد السلطة الحاكمة ، وبدلا من أن يقضى الفقهاء على هذه الفروق العنصرية انحازوا إلى أهل البلاد وشجعوهم على القيام فى وجه الأمير .

وفيما كانت ريح هذه الشرور تعصف ببلاد الأندلس ، ثار سليمان وعبد الله عمّا الحكم مرة أخرى بعد أن كان قد عفا عنهما هشام ، فسار عبد الله إلى شرلمان فى إكسلا شابيل يطلب مساعدة ذلك الملك الطموح الذى أوفد فى الحال مع الثائر جيشا استولى به على طليطلة ، بينما استولى سليمان على بلنسية ، وفى الوقت نفسه زحف لويس وشارلس ابنا شرلمان على الولايات الشمالية ، وأعملا السيف فى رقاب أهلها وأحرقا بيوتهم ، وأغار الفونسو أمير جليقية على ولاية أراغون ، فأظهر « الحكم » فى تلك الظروف العصيبة نشاطا عظيما ، فأسرع

بالزحف على أراغون بعد أن سير إلى طليطلة جيشا صغيراً للمحافظة عليها ، ثم غزا جليقية وافتتح حصونها ، ثم عاد إلى الفرنج وأجلاهم إلى ما وراء البرنيه ، و بعدئذ عاد إلى طليطلة ونشبت بينه و بين سليمان معركة حامية قتل فيها سليمان ، وسلم عبد الله فعفا عنه . و بينما كان الحكم منصرفا إلى هذه الحروب استولى الفرنج على برشلونة ، ويرجع ذلك إلى خيانة حاكمها الذى استدعى الفرنج طمعا فى الاستقلال بها ، وهكذا أصبح شرلمان قابضا على حصن من أكبر الحصون الإسلامية فى أسبانيا ، وانقسمت بذلك أملاكه الأسبانية إلى ولايتين إحداهما تشمل كتالونيا وحاضرتها برشلونة ، وتشتمل الأخرى على غسقونية والمدن الفرنجية فى نافارا وأراغون ، وفى سنة ١٨٩ هـ استولى الحكم على كتالونيا .

الفتنة فى قرطبة

وفى سنة ٨٠٩ نشبت فتنة فى قرطبة فأخمدها الحكم بالرأفة واللين ، ولكنه بينما كان فى السنة التالية مشغولا بإخماد ثورة ماردة جاءته الأخبار بأن أهل قرطبة ثاروا عليه من جديد ، فأسرع بالعودة إلى العاصمة ، وفى تلك المرة قمع الفتنة بكل شدة مما زاد فى غضب الشعب عليه ، وفى سنة ٨٠٧ زحف الفرنج على طرطوشة بقيادة لدوغ بن شرلمان وحاصروها ، بيد أن عبد الرحمن بن الحكم خلصها من أيديهم ، وفى سنة ٨١١ زحف بنفسه على الفرنج وأثخن فيهم وتغلب عليهم .

طليطلة

لم ينس أهل طليطلة قط أن بلدهم كانت عاصمة أسبانيا ، وظلت ذكرى مجدهم الماضى تضطرم فى أفئدتهم ، وتزيد فى عدائهم وسخطهم على العرب ، ولما كانوا يعتزون بثروتهم وكثرة عددهم شقوا عصا الطاعة ، ورفضوا الاعتراف بسلطة أى حاكم لا يرضون على تعيينه ، فثاروا الأول مرة سنة ١٨١ هـ ، ولكن ثورتهم أخمدت دون مشقة ، وكان الذى أخمد تلك الثورة قائد الحكم « عمروس ابن يوسف » وهو أحد المولدين ، فانحاز إليه بعض وجهاء المدينة ، واستعان بهم على استمالة أهلها[1] والإقرار بسلطة الحاكم ، ولكنهم استأنفوا الثورة ثانية بعد

(١) بنو مخمى .

عشر سنين ، وعندئذ لم ير الحاكم وسيلة لإخضاعهم بعد أن أعيته الحيل سوى تعيين « عمروس » حاكما عليهم ، وكان قائد الولاية الشمالية ، فآنس به أهل طليطلة وتظاهر أمامهم بالبغض للأمويين والموافقة على خلع طاعتهم . وقد بلغت ثقتهم فيه أن سمحوا له بأن يبنى بظاهر المدينة قلعة حصينة دعا إليها وجهاء المدينة ذات يوم وقتلهم عن آخرهم[1] ، فألفت المدينة نفسها بعد ذلك مجردة من زعمائها ، فركنت إلى السكون سبع سنين أخر .

هياج أهل قرطبة

وفى سنة ١٩٨ هـ وصل هياج القرطبيين أشده ، وفى ذات يوم بلغت الحماقة بأحد العامة أن أهان الأمير وهدده فى المسجد فأمر الحكم بقتله ، فأدى ذلك إلى هياج الشعب فى ضاحية قرطبة المسماة شقونده ، وحاصر الثوار الأمير فى قصره وتفاقمت الأمور ، بيد أن « الحكم » عالج الموقف بالنشاط وهدوء البال المعروفين عنه ، ففرق شملهم وقتل رؤساءهم ، وأمر بنفى من بقى منهم ، فعبر البعض إلى فاس ، وسافر معظمهم إلى الإسكندرية ، ثم أبحروا إلى كريت (قرتيش) وظلوا بها حتى استعادها اليونان منهم . وفى سنة ٨١٦ م عقد الصلح بين ابن شرلمان الذى خلف أباه على عرش فرنسا و بين الحكم ، ولكن هذا الصلح لم يدم إلا سنوات قليلة ، وتوفى الحكم فى سنة ٢٠٦ هـ ، وكانت مدة حكمه ٢٦ سنة ، فخلفه ابنه عبد الرحمن الملقب بالأوسط ، و يقول المؤرخ العربى : إن فى عهده ساد الأمن فى الولايات الأندلسية ، وحسنت حال الرعية وكثر الخراج ، وكان ميالا للآداب والفنون مولعاً بمجالس العلماء والأدباء ، و بدأ حب الموسيقى ينتشر بين طبقات الشعب حتى أصبح فيما بعد من مميزات الأندلسيين العرب ، وقد وصل البلاط فى عهده إلى درجة لم يسبق لها مثيل من الفخامة والرونق ، وأشرقت فيه جمال الأخلاق العربية ورقة شمائلها وظرفها . ذلك الجمال الذى حاول فرسان النصرانية

---

(١) ابن الأثير .

أن يحتذوا حذوه ، ويقتبسوا من نوره منذ ذلك الحين[١].

و بعد أن تولى عبد الرحمن الحكم بقليل أغار أمير ليون « الفونسو الثانى »[٢] على مدينة سالم من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بعض القبائل المسيحية الأخرى ، فأغارت على البلاد الإسلامية ، فسير عبد الرحمن قوة كبيرة لتأديبهم ، فسارت إليهم وهزمتهم فى عدة مواقع فخربت حصونهم ، واشترط عليهم أن يدفعوا جزية فادحة علاوة على الجزية المعينة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة لحسن طاعتهم . وقد انتهز الفرنج تلك الفرصة وأغاروا على البلاد الإسلامية فى كتالونيا ، وأعملوا فيها يد التخريب والقتل ، ولكن الأمير بعث بجيش ضخم فزحف عليهم وشتت جموعهم وأجلاهم إلى ماوراء الحدود .

أول ظهور النورمان

وفى ذلك العهد ظهر النورمان (ويسميهم العرب بالمجوس) على السواحل الأسبانية ، وعاثوا فساداً فى عدة مواضع قريبة من البحر ، ولكنهم لاذوا بالفرار عند اقتراب جيش ملك قرطبة وأسطوله ، ثم ثار مسيحيو ماردة بتحريض لويس ملك الفرنجة عدة مرات ، ولكنهم كانوا يعلنون خضوعهم بسهولة ، وقامت ثورة أخرى فى طليطلة اشترك فيها اليهود والمسيحيون معا ، ولكنها قمعت فى الحال .

وفى نهاية عهد عبد الرحمن استحال تعصب نصارى قرطبة إلى عداوة نكراء وبدت منهم البوادر التى تنذر بالانفجار ، ولم يكن فى نظام العرب ما يسوء النصارى عموما ومتنورى العاصمة وغيرها خصوصاً ، بل بالعكس كانت قد توفرت جميع الأسباب لإسعادهم ، فلم يحدث قط ما يكدر صفو عيشهم ، أو يحول دون إقامة شعائرهم أو اتباع شرائعهم ، ولكم حارب الكثير منهم مع المسلمين فى الجيش جنباً لجنب ، وعينوا فى أرقى الوظائف السياسية والحربية ، وأرسل

(١) سديو (تاريخ العرب) .
(٢) ويسمية العرب لذريق أو لودريك .

المسيحيون المستعربون

الكثير منهم بمهمات خاصة إلى الدول الأجنبية ، واشتغل علماؤهم فى مزارع الأمراء المسلمين . ولطالما بهرت الآداب العربية الطبقة المثقفة ، وبالأخص أصحاب الذوق السليم منهم ، فتكلموا بها ووضعوا مؤلفاتهم بلغة المحتلين ، ولكن ذلك الفريق المستعرب كان موضعاً لبغض الفريق الآخر المتعصب الذى كان يرميه بالكفر والإلحاد ؛ ويقول كاتب مسيحى مشهور : « كان هؤلاء يبغضون المسلمين أشد البغض ، ويحملون أفكاراً خاطئة عن محمد (ص) وتعاليمه ، مستعينين على تلك المعرفة بوجودهم بين العرب ، وكانوا يأبون ولوج أبواب التعرض للحجج التى كانت تسطع أمام دورهم مكتفين بالظواهر منها فحسب ، فكانوا يقنعون بالاعتقاد السطحى ثم ينشرون الخرافات السخيفة التى أحاطت بظهور نبى مكة[1] ولم يك بغضهم قاصراً على دين العرب فحسب ، وإنما كانوا يبغضون نخامة الطبقة الحاكمة ورقتها ، وقد قوى دعائم ذلك البغض فى قلوبهم ما كانوا يعانونه من خشونة عامة قرطبة كما يفعل أهل المدن الحديثة إزاء الأجانب ، فتحول حماسهم الدينى فى عهد « عبد الرحمن » إلى اضطراب شديد ، « وأضحوا فى قلل الجبال لصوصاً وسفاكين ، وفى العاصمة شهداء وقديسين » وجاهروا بالاجتراء على مقام النبى العربى ودينه ، ودخلوا الجوامع فى أثناء الصلاة ورفعوا عقيرتهم بتلك الشتائم المنكرة وعبثوا بدين الشباب المتحفز .

وكان الاجتراء على مقام الرسول جريمة شنعاء بمقتضى قانون الدولة الإسلامى باعتباره يؤدى إلى الفتن وإراقة الدماء ، وعلى هذا قدم القاذفون إلى المحكمة حيث جاهروا بجريمتهم أمام القاضى فعوقبوا بالإعدام ؛ ولما قدم قرار المحكمة إلى المجلس الأعلى ، رؤى من الرحمة أن يعفى عنهم على شرط أن يسحبوا كلامهم ويعتذروا عن جريمتهم ، ولكن هؤلاء المجرمين بدلا من أن ينزلوا على ذلك الرجاء أخذوا يكررون جريمتهم الشنعاء ، فسمح للقانون بأن يتخذ مجراه ، وأدرك

(١) دوزى (تاريخ دولة المسلمين فى أسبانيا) .

عبد الرحمن خطورة المأزق ؛ فعقد مجلساً من القسس من جميع أطراف المملكة وعين للإنابة عنه فى ذلك المجلس أحد زعماء المسيحيين ، ومستشارى الحكومة النبهاء[1] فأصدر الأساقفة قراراً يمنعون فيه المجاهرة بسب النبى ، وقرروا اتخاذ إجراءات صارمة ضد المجرمين ، ولكن لم يكن ثمة من يستطيع تسكين ذلك التعصب الأعمى ، فتحدى هؤلاء المكابرون سلطة أساقفتهم ؛ وقد بلغ التهوس المفرط ببعضهم أن دخل المسجد الجامع وصاح بأعلى صوته : « إن ملكوت السماء آتية لا ريب فيها ، و إن جهنم أعدت للكافرين و بئس المصير » ، فثار المسلمون وهموا بقتل القاذفين ، غير أن القاضى تدخل فى الأمر وأنقذهم من انتقام المصلين ، وقد كان مطران العاصمة حازماً والحكومة ساهرة على راحة الشعب فأودع كثير من المتعصبين غيابات السجن ، ولكن هؤلاء المتهوسين ظلوا مصدرا للاضطراب حتى وفاة عبد الرحمن سنة ٨٥٢ م .

ولاية محمد بن عبد الرحمن

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك بعد وفاة أبيه ، ويقول ابن الأثير « إنه سار على أثر أبيه من العناية بالإصلاح ، و إنه أول من أقام أبهة الملك بالأندلس ، ورتب رسوم المملكة ، وعلا عن التبذل للعامة ، وفى ذلك شبه بالوليد بن عبد الملك » . وعلى أثر وفاة عبد الرحمن استأنف أهل طليطلة الثورة يعضدهم فى ذلك جيش كان الأمير ليون قد أرسله إليهم ، فأسرع محمد بنفسه على رأس قوة كبيرة ، والتقى الفريقان فهُزم الثوار وحلفاؤهم الفرنج فى مكان يعرف بوادى سليطة ، فأعلنوا طاعتهم على أن يحتفظوا ببعض مظاهر الحكم الذاتى ، وأخذ الخائنون والمحرضون فى قرطبة يشعرون بوطأة الأمير العادل الذى اتخذ الإجراءات الكافية لقلع بذور الفتنة فى العاصمة ، وقتل جميع المحرضين المتعصبين والذين كانوا يتكاتبون مع الأعداء خارج الحدود ، ورأى أهالى البلدة أنهم قد حرموا

(١) اسمه كومز بن أنتونى بن جوليان وكان النصارى المتعصبون يلعنونه لاشتراكه فى ذلك المجلس .

من زعمائهم الذين سيطروا على البلد عدة سنوات « فخضعوا بالتدريج إلى القانون العام ، ولم يمض سوى قليل حتى أصبح ذلك الحماس أثراً بعد عين ، ولم يبق منه سوى ذكراه »[١] .

وقد انتهز الفرنج فرصة الحروب الداخلية على عاداتهم وأغاروا على الولايات الشمالية ، فأقام محمد فى تلك الجهة جيشا لحمايتها .

وفى سنة ٢٤٥ هـ ظهر النورمان بعد أن نهبوا شاطئ البروفانس ، وأخذوا فى نهب الثغور الواقعة على السواحل الأسبانية ، فتعقبهم الأسطول الأندلسى وطردهم من الشواطئ بعد أن حطم كثيراً من سفنهم ، وأرسلت الجيوش إلى جليقية ونافارا وليون لتأديب أمرائها المسيحيين ، وفى سنة ٨٦١ زحف عامل طرطوشة على نافارا ، وهاجم بمبلونة وخرب حصونها ، وبعد أربع سنوات طلب أمير ليون الصلح دون قيد أو شرط ، ولكن فى نهاية حكم محمد انفجرت ثورات أعظم شأنا وأكثر خطورة فى مختلف أنحاء البلاد ، ففى أرغونه ثار مسلم أسبانى[٢] من ذرية القوط ، فاستولى على سرقسطة وتطيلة ووشقا ، واتخذ لنفسه لقباً ملكيا كما خرج فى الولايات الغربية فى ماردة عبد الرحمن بن مروان[٣] وتحالف مع الفونس الثالث أمير ليون ؛ وظهر فى ذلك الحين بمقاطعة بيشتر ثائر أكثر خطراً وأشد بطشا ، وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رنده ومالقه مأوى اللصوص والقتلة والثائرين ، وفيها لاقى قواد نابليون فيما بعد مقاومة شديدة من الأعداء ، وفيها نهض عمر بن حفصون الذى فر من جيش الأمير ، فانضمت إليه عصابات عديدة من اللصوص ، وأسس ولاية مستقلة ، وقد اشتهر أمر الثائرين فى المقاطعات ، واندلع شرر الثورة فى معظم المدن بتحريض الأمراء المسيحيين من

---

(١) دوزى .
(٢) يسمى موسى من قبيلة بنى قسى .
(٣) يسميه ابن الأثير الجليقى .

جهة ، وملك الفرنج من الجهة الأخرى ، ومما يدهش حقا أن هذه المملكة العربية ظلت تقاوم تلك الفتن والدسائس دون أن تتمزق أوصالها أو ينهار بنيانها .

ولما كان محمد بن عبد الرحمن قد ضعفت قواه وطعن فى السن بحيث لم يعد يقوى على العيش فى ميدان القتال جهز ابنه وولى عهده « المنذر » بجيش ضخم لقمع تلك الفتن الخطرة ؛ فزحف على الولايات الشمالية ، وقصد سرقسطة وروتا وقرطجنة ولارده فافتتح حصونها ، وأسر عبد الواحد الروتى « أشجع أهل عصره »[1] ، وقدم إسمعيل بن موسى الثائر بأرغونة الطاعة فأجابه إلى طلبه . وفى سنة ٢٧١ هـ زحف المنذر ثانية على ابن مروان وهزمه شر هزيمة وخرب معقله ، وكانت سرقسطة قد سقطت ثانية فى أيدى محمد بن لب بن موسى وحليف ابن حفصون ، فسير الأمير محمد جيشاً عليهما وحاصر الحامية حصاراً شديداً ، ففر الثائران إلى الجبال ، ولكنهما ظهرا ثانية بعد عودة الجيش . وفى سنة ٨٨٦ تجهز المنذر لمقاتلة عمر بن حفصون الذى استعصم بمدينة الحاما ، و بعد حصارها مدة طو يلة هدمها . وفى ذلك الحين توفى محمد بن عبد الرحمن فترك المنذر الحصار وأسرع بالعودة إلى قرطبة ليضمن اعتلاءه عرش أبيه ، فانتهز عمر تلك الفرصة واستولى على عدة قلاع ، وكان محمد محباً للعلم مترويا حكيما عارفا برسوم المملكة ؛ وكان المنذر الذى خلفه حازما نشيطا شجاعا فطناً ، ولو أمد الله فى حياته لنجح فى تنظيم مملكته وأعاد الأمن إلى نصابه ، فتأهب لإتمام العمل الملقى على عاتقه ، وسار بنفسه على رأس جيش كبير لإخضاع الثوار ، فاستولى على أرشدونة وحاصر « بيشتر » التى استعصم بها عمر ثم شدد عليه الحصار حتى أذعن لطلب الصلح ، ولكنه سرعان ما نكث عهده فعاد المنذر لقتاله ، ولكنه خر صريعاً[2] على مقربة من بيشتر ، ومع أن

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٥٨ .

(٢) ذكر دوزى أنه مات مسموماً بيد طبيبه . (المعرب)

حكمه لم يدم أكثر من سنتين إلا أن البلاد ازدهرت وزهت فى عهده وازدادت ثروة أهليها .

تولى عبد الله

فلما توفى المنذر خلفه أخوه عبد الله بن محمد . ويقول ابن الأثير : « إن فى أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وسار فى كل جهة متغلب ، ولم يزل الأمر كذلك طول ولايته » ، فارتق عبد الله العرش فى أحرج الظروف إذ كان العداء العنصرى يمزق أوصال المملكة ، ولم يكن يفت فى عضد أمير قرطبة ثوار الجبل فحسب ، بل أخذت الأرستقراطية العربيـة تناوئه العداء أيضاً ، إذ رأوا الفرصة سانحة للاستقلال والزعامة .

عهده الممتاز

نشبت الثورات والفتن فى كل مكان ، ووقعت بين العرب والمولدين فى أشبيلية وألبيرا معارك دموية هائلة ، واستعصم كثير من زعماء البربر بالحصون المنيعة وتحدوا سلطان الأمير ، واستولى أمراء العرب على منتسا ومدينة بنى سالم ولارقة وسرقسطة ؛ بينما سار إبراهيم بن الحجاج أحد أحفاد الأميرة سارة القوطية التى ورثت أسرته عنها أملاكا طائلة فى منطقة أشبيلية ، وأنشأ بها إدارة مستقلة ، وكان حكمه شديداً صارما حتى أنه فاق شدة حكم الملك ، فقمع كل أعمـال الفتن والنهب بقسوة عظيمة ، وشجع التجارة والصناعة والفنون ، وصرفت الجهود لإصلاح ما خربته الفتن ؛ واستقل زعماء المولدين بباجه وجيان ومرسية وغيرها من المدن ، واستقر ابن مروان ببطليوس [1] ، وأنشأ محمد بن لوبس فى أراغون (الثغر الأعلى) إمارة مستقلة .

واتهز عمر بن حفصون فرصة هـذه الاضطرابات ليؤيد سلطته ويوسع أملاكه ، وطمحت نفسه حتى إلى الاستيلاء على قرطبة . ولـكن السلطان الذى كان يتبع كل هذه المدة سياسة الوفاق والتردد اعتزم أن يكافح فى سبيل عرش

---

(١) اسمها القديم (باكس أوغسطا) وكان بها ابن عبدون وزير بنى الأفطس وشاعر الأندلس المشهور . (المعرب)

انهزام ابن حفصون

أجداده الذى كانت تعصف به رياح الثورات والفتن . فنجح قائده عبيد الله فى إلحاق الهزيمة بابن حفصون بالقرب من بولى ، وكانت هذه المعركة حاسمة ، إذ أنقذت العرش من الانهيار ، ثم استولى بعد ذلك على بولى واستيجا وأرشيدونا وألبيرا وجيان . وكان الوزير الأمين « بدر » قد أشار على السلطان بخطة عادلة فقدم ابن الحجاج طاعته مختاراً ، وبدأ بخضوع هذا الزعيم عصر جديد فى عهد السلطان الذى أخذ نفوذه ينتشر بالتدريج فى مناطق الثائرين ، وقدمت المناطق الواقعة بين الجزيرة ونيبلة طاعتها دون قتال وحذت حذوها البلاد الأخرى الخطيرة حتى أن بنى قصى زعماء أرغونة أبدوا استعدادهم إلى الطاعة .

وفى تلك المرحلة توفى الأمير الكهل فى السادسة والثمانين بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة حكما ملؤه الاضطراب والفتن .

دخول العرب فى سافوى

ولا يستطيع السائح المتأمل أن يمر على سواحل ليجوريا وفى هضاب الألب فى بلاد بيوموند ودوفينيه من غير أن يلاحظ آثار الطابع العربى الدارس . ولعله يتساءل أوجود مثل هذا الأثر يعزى إلى الصدفة أو إلى سبب آخر ؟ ففى العصر الذى نتحدث عنه سنة (٨٨٩م) دخل العرب ثانية جنوبى فرنسا ، ولكنهم دخلوا فى هذه المرة من طريق خليج سان تروبيه وانتشروا فى بروفانس ودوفينيه وكانت هذه الحملة مستقلة عن أية حكومة عربية ، إذ قام بها بعض أهل الموانى الأسبانية والإفريقية تحرضهم فى ذلك روح المخاطرة والمجازفة . وفى سنة ٩٠٦ اخترقوا هضاب دوفينيه ثم عبروا جبل سنيس ثم استولوا على بيوموند وليجوريا وتوغلوا فى سويسرا حتى بحيرة كونستانس ، حيث أنشأوا مستعمرة كبيرة واستولوا فى فرنسا على فريجوس ومرسيليه وكرينوبل ، وبقيت نيس فى قبضتهم مدة طويلة ، ومن آثار حكمهم أن جزءاً من هذه المدينة لا يزال يسمى بحى العرب (كانتون دى سراسينس) .